محاضرة رقم: 09 الإستكشاف L'exploration

عند الانتهاء من الصياغة المؤقتة لمشروع البحث من خلال سؤال الانطلاق، يصبح الأمر متعلقا بالوصول إلى مستوى معين من المعلومات والمعارف حول الموضوع، وايجاد أفضل الطرق والكيفيات لتناوله. وهنا تكمن مهمة ودور العمل الاستطلاعي. هذا الأخير يقسم عادة إلى عمليتين ينجزهما الباحث في العادة بالموازاة، من جهة القراءات، ومن جهة أخرى المقابلات التي يجريها الباحث مع المتخصصين والعارفين بالموضوع.

القراءات التي يقوم بها الباحث في المرحلة الاستطلاعية، تمكنه بالدرجة الأولى من التعرف على البحوث التي أنجزت حول الموضوع، ومن هنا يستطيع أن يقدم تصور عن موقع ومحل البحث الذي هو بصدد القيام به، ضمن مجموع هذه البحوث. والإسهام الذي يفترض أن يقدمه بخصوص الانشغال العلمي الذي يطرحه.

من أجل استكشاف جاد ومنهجي يمكّن الباحث من التعرف على الموضوع أكثر ويقف على أبعاد ومستويات المشكلة بشكل أحسن، على الباحث أن يطرح على نفسه سؤالين في غاية الأهمية:

ماذا أقرأ ؟ وكيف أقرأ ؟

أمّا عن السؤال ماذا أقرأ؟ هو سؤال يسترشد به الباحث في تحديد واختيار من ضمن المراجع المتوفرة ماذا ينبغي عليه أن يقرأ. بمعنى ينبغي على الباحث أن يكون برغماتيا إلى أبعد الحدود فيرتب ما توفر من نصوص ومراجع ومقالات وبحوث ودراسات حسب درجة علاقتها بالموضوع ومدى أهميتها ونجاعتها في تحليل المشكلة، وهذا بغرض ادخار الوقت والجهد للخطوات اللاحقة. ومهما كان لا يمكن للباحث أن يتعرف بشكل دقيق وواضح على ماذا يقرأ إلا إذا كان السؤال الذي صاغه في الخطوة السابقة يتمتع بمواصفات الدقة والوضوح كما هو مبين في الدرس. وهذه نقطة مفصلية بين الإستكشاف وسؤال الانطلاق.

بفضل القراءات إن تمت بكيفية جادة ومنهجية، يستطيع الباحث معرفة الأفق الملائم أكثر كي يتناول موضوع بحثه. ومن هنا يجب أن يختار ما يقرأ وفقا لمعايير جد دقيقة من حيث ارتباطها بالسؤال، أي سؤال الانطلاق، من حيث ثراؤها النظري والمنهجي، ومن حيث تنوع مقارباتها.

بخصوص كيف أقرأ؟ على الباحث أن يحرص كل الحرص على أن تكون القراءات وفق خطة يراعي فيها المدة الزمنية المخصصة لذلك، بحيث لا يكثر من القراءات ويسترسل فيها على حساب الخطوات الأخرى. ولكي تكون القراءات مفيدة أكثر ومثمرة، على الباحث أن يستعين بشبكة للقراءة ينجزها وفقا للأهداف التي يسعى للوصول إليها. وفي الأخير ينبغي على الباحث أن يستعين من جهة أخرى بملخصات ينجزها بطريقة علمية صحيحة، من شأنها أن تحافظ له على الأفكار الأساسية لمجموع البحوث والمقالات والأعمال التي قرأها. ومن تم يستطيع المقارنة بينها والأخذ بأهمها. بشأن القراءة في المرحلة الاستطلاعية، يقول أحد كتاب المنهجية في العلوم الاجتماعية: " قراءة رواية للمتعة وقراءة نص أو مقال في سياق بحث علمي، فعلين في الحقيقة يختلفان "... ومن هنا يقدم جملة من التوجيهات من أجل قراءة فعالة تستجيب للتطلعات العلمية والتحصيل المعرفي:

- القراءة ينبغي أن تكون مصحوبة دوما بتسجيل نقاط.
- من المهم جدا أن تكون القراءة نشطة، بمعنى القراءة باستخدام قلم رصاص نستعمله في تسطير المقاطع والعبارات المهمة، وتحويط كلمات، مصطلحات، مفاهيم. وكتابة ملاحظات على الهامش...الخ. بالشكل الذي يمكّن الباحث في الأخير من استخلاص العناصر الأثر أهمية بالنسبة للبحث الذي هو بصدد انجازه. وهذه العناصر تكون في الغالب ممثلة في الأطروحات الساسية،

البراهين والحجج والمعطيات التي يمكن اعتبارها ضرورية. والمحدد في ذلك بطبيعة الحال هو السؤال الذي يطرحه الباحث في الإنطلاق بالإضافة إلى الأسئلة التي تدور في فلكه.

- أن يلتزم الباحث أثناء القراءة وتسجيل الملاحظات بالدقة والموضوعية والحرص على فهم المعاني الصحيحة للنص وعدم الوقوع في فخ الأحكام المسبقة في البحث عن المعنى كما هو متضمن في النص، سيما عندما يتعلق الأمر بالترجمات.
- القراءة النشطة أيضا تقتضي الاستعانة ببطاقات أو كراسات تخصص أو تصنف حسب الكتّاب أو حسب الفصول أو المواضيع.
- تكتمل صورة القراءة النشطة وتأتي أكلها عندما يتوفر الباحث على مستوى معين من القدرة على التركيب. الخاصية التي تسمح له بالذهاب مباشرة نحو الأهم من الأفكار وطرح جانبا الأفكار والعناصر الثانوية، الأمر الذي سوف يفر عليه الوقت والجهد.

بخصوص المقابلات الاستطلاعية، فإنها تكمل وبشكل ضروري وأكيد، القراءات. باعتبار أنها تسمح للباحث وتمكنه من الاحتكاك بتجارب البعض من المتخصصين العارفين الاستفادة من خبراتهم. الأمر الذي قد يساعده في الوقوف على بعض جانب وزوايا الموضوع التي ربما لم يتمكن منها من خلال القراءات. يجب أن تكون المقابلات الاستطلاعية نصف مقننة أو نصف موجهة، باعتبار أن الهدف منها ليس البحث عن اختبار مدى صحة أو بطلان الأفكار والتصورات التي يطرحها الباحث كفرضيات، وإنما الهدف هو محاولة تحصيل ومعرفة المزيد من الأفكار. أما الأطراف المعنية أكثر بالمقابلات الاستطلاعية، أي مع من يجري الباحث هذه المقابلات؟ فالأمر يتعلق بثلاثة أطراف: المتخصصين العلميين في المجال أو الميدان الذي بقع فيه موضوع البحث. الشهود أو الأعيان المباشرين. وثالثا الأشخاص المعنيين مباشرة بموضوع البحث، أو المشكلة المطروحة للبحث.

أما عن استغلال المقابلات، فيمكن للباحث أو بالأحرى عليه أن يستغل من جهة الأقوال والتصريحات التي سمعها أو سجلها وتوظيفها مباشرة كمصدر معلومات؛ من جهة ثانية، كل مقابلة يمكن أن تقرأ وتحلل كمسار صرح من خلاله المستجوب عن نفسه بحقيقة أكثر عمقا من تلك التي قد تدرك من قبل الباحث فورا أثناء المقابلة، (تحليل المضمون).

عند الانتهاء من هذه الخطوة يفترض أن يكون الباحث على موعد مع إعادة صياغة سؤال الانطلاق بشكل يأخذ بعين الاعتبار كافة المعارف والمعطيات التي استجمعها في المرحلة الاستطلاعية. دون تغييب لأي مستوى أو بعد يمكن أن يكون حاسما بالنسبة لمسار البحث وصيرورته.

المراجع:

موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية تدريبات عملية، تر: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر، ط2، الجزائر، 2006.

François .DEPELTEAU, La démarche d'une recherche en scirnces humaines : De la question de départ à la communication des résultats, 2eme Ed ,de Boeck ,Paris 2010, p.105.